

يُحكى أنَّ مُعْنِيًّا عَزَمَ عَلَى التَّوْبَةِ، فَقِيلَ لَهُ: عَلَيْكَ بَصُحْبَةُ الصُّوفِيَّةِ! فَإِنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عَلَى إِرَادَةِ الْآخِرَةِ، وَالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، فَصَحْبُهُمْ، فَصَارُوا يَسْتَعْمَلُونَهُ فِي السَّمَاعِ وَالْإِنْشَادِ، وَلَا تَكَادُ التَّوْبَةُ تَنْتَهِي إِلَيْهِ لِتَزَاحِمَهُمْ عَلَيْهِ، فَتَرَكَ ذَلِكَ الْمَغْنِي صَحْبَتَهُمْ، وَقَالَ: أَنَا كُنْتُ تَائِبًا وَلَا أُدْرِي (١).

هذه واقعة سطرَّها يراع ابن القيم - رحمه الله -، وهي تذكُّرنا بالإغراق والمبالغة في النشيد هذه الأيام، والذي استحوذ على فئام من أهل النشيد، حتَّى أفضى الأمر عند بعضهم إلى محاكاة الغناء الماجن.

فصاحَب بعض الإنشاد التَّكسُّرَ والتَّأوهُ فِي الْإِلْقَاءِ، وَمِشَابَهَةَ لِحُونِ الْغِنَاءِ الْمَتَهْتِكِ، وَاعْتِنَاءَ بَعْضِ الْمُنْشِدِينَ بِجَمَالِ الصُّورَةِ، وَتَمْيِيقِ الْمَظْهَرِ، وَحَلْقِ شَعْرِ الْوَجْهِ؛ بَلْ أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْمَعَارِضِ فِي ذَلِكَ النُّشِيدِ الْمَتَفَلْتِ، وَيُضَافُ إِلَى ذَلِكَ تَقْتِيَاتِ الصَّوْتِ وَمُؤَثَّرَاتِهِ، وَالَّتِي جَعَلَتْ الْأَسْمَاعَ لَا تَكَادُ تَمَيِّزُ بَيْنَ غِنَاءِ الْمَجُونِ وَهَذَا النُّشِيدِ.

وقد ألمح ابن الجوزي إلى ذلك وحذَّر من مغبة هذا الصنيع فقال: «وَلَمَّا يَسَّ إبليس، أَنْ يَسْمَعَ مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ شَيْئًا مِنَ الْأَصْوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ كَالْعُودِ، نَظَرَ إِلَى الْمَعْنَى الْحَاصِلِ بِالْعُودِ، فَدَرَجَهُ فِي ضَمَنِ الْغِنَاءِ بِغَيْرِ الْعُودِ وَحَسَنَهُ لَهُمْ، وَإِنَّمَا مَرَادُهُ التَّدْرِيجَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ. وَالْفَقِيهَ مِنْ نَظَرٍ فِي الْأَسْبَابِ وَالنَّتَائِجِ، وَتَأَمَّلِ الْمَقَاصِدَ» (٢).

- والإِنهَمَاكُ فِي كَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْشَادِ يورث عاطفة وانفعالا عند بعض الناس، لكن دون بصيرة أو فقه، فهو يحرك المشاعر، ويؤجج العواطف. وقد استحوذ على الصوفية سماع القصائد فقلَّ علمهم وعزَّ فقههم، حتى قال سفيان الثوري: «أعزَّ الخلق خمسة أنفس - وذكر منهم -: فقيه صوفي» (٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا غلب على منحرفة المتصوفة الإعتياض بسماع القصائد عن سماع القرآن، فإنَّه يُعطيهم حركة حبٍّ من غير أن يكون ذلك تابعاً لعلم وتصديق.. وله تأثير من جهة التَّحريك والإزَعَاج لا من جهة العلم» (٤).

فالأجيال العاكفة على سماع النشيد لا تنال بذلك فهماً، ولا تحقق علماً بدين الله - تعالى -، وإنما هو ترنم وتواجد، وانفعال عاطفي. - والولع بسماع النشيد يزهد في سماع القرآن العظيم، «ولذا تجد من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه تنقص رغبته في سماع القرآن، حتَّى ربَّما كرهه» (٥).

وقد قال الإمام الشافعي: «خَلَّفَتْ بَغْدَادُ شَيْئًا أَحَدَثَهُ الزَّنَادِقَةُ بِسَمُونَةِ التَّغْيِيرِ (٦)، يَصُدُونَ بِهِ النَّاسَ عَنِ الْقُرْآنِ» (٧).

قال ابن تيمية - معلقاً على كلام الشافعي -: «وهذا من كمال معرفة الشافعي وعلمه بالدين، فإن القلب إذا تعودَّ سماع القصائد والأبيات والتدبُّر بها، حصل له نفور عن سماع القرآن والآيات، فيستغني بسماع الشيطان عن سماع الرحمن» (٨).

ويقول - في موطن آخر -: «فإنَّ السُّكْرَ بِالأصْوَاتِ الْمَطْرِبَةِ قَدْ يَصِيرُ مِنْ جِنْسِ السُّكْرِ بِالأَشْرَبَةِ الْمُسْكِرَةِ، فَيُصَدِّمُهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، وَيَمْنَعُ قُلُوبَهُمْ حِلَاوَةَ الْقُرْآنِ، وَفَهْمَ مَعَانِيهِ، وَاتِّبَاعَهُ، فَيَصِيرُونَ مُضَارِعِينَ لِلَّذِينَ يَشْتَرُونَ لَهُوَ الْحَدِيثِ لِيُضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...» (٩).

فالقلوب أوعية، فإن كان الوعاء مملوءاً بحبِّ القصائد والأنشيد، فأين يقع حبُّ القرآن وذكر الله - تعالى - في ذلك الوعاء؟!

وقال ابن الجوزي - في نقده الصوفية -: «وقد نشب حبُّ السماع بقلوب خلق منهم، فأثروه على قراءة القرآن، وورقت قلوبهم عنده مما لا ترق عند القرآن، وما ذاك إلا لتمكن هوى باطن تمكّن منه، وغلبة طبع...» (١٠).

- إن النشيد المنضبط بالضوابط الشرعية بديل محمود عن الأغاني الماجنة، لكن إذا وضع بتوازن في موضعه الصحيح، أما إذا أردنا أن نعرف الحكم الشرعي في ذلك النشيد المتفلسف، فعلياً أن ننظر إلى مآلاته وعواقبه، وقد حرر شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم قاعدة في ذلك، وأعمالها على السماع المحدث، فكان مما قاله ابن القيم:

«إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شيء: هل هو الإباحة أو التحريم؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايتها، فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته، بل العلم بتحريمه من شرعه قطعي. ولا سيما إذا كان طريقاً مفضياً إلى ما يغضب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم - موصلاً إليه.

فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر؛ لأنَّه يسوق النَّفسَ إلى السكر الذي يسوقها إلى المحرمات، ثم يبيح ما هو أعظم منه سوفاً للنفوس إلى الحرام بكثير؟...» - إلى أن قال -: «... والذي شاهدناه - نحن وغيرنا - وعرفناه بالتجارب أن ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم، وفشت فيهم، واشتغلوا بها؛ إلا سلب الله عليهم العدو، وبُلُوا بالقحط والجذب وولادة السوء. والعامل يتأمل أحوال العالم وينظر، والله المستعان» (١١).

- هذا النشيد المتتهتك أنموذج من الترخص المتفلسف في واقعنا الحاضر، فقد ظهرت في الآونة الأخيرة توجهات ومؤلفات في التفلسف عن ضوابط الشرع، والتواشُب على حرَمَاتِ - الله عز وجل - مثل: حلق اللحية، وإباحة سماع الغناء، والتوسع في أنواع من المناكح والمكاسب والمطعمات دون التحقق من أحكام الشرع.

إضافة إلى ما هو أطم من ذلك كالتساهل في وسائل الشرك وذرائعه، وتهوين عقيدة الولاء والبراء، وغير ذلك.

وهذا الواقع يوجب على العلماء والدعاة أن يُربِّوا الأمة على أخذ الدِّين بقوة، والدعوة إلى التمسك بالسنة والعض عليها بالنواجذ، والحذر من تتبُّع الرُّخص والجيل المحرمة والأقوال الشاذة، وإحياء واعظ الله في قلوب أهل الإسلام، والتذكير بالوقوف بين يدي الجبار جل جلاله، الذي يعلم السر وأخفى، قال - عز وجل -: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بِصِيرَةٌ {١٤} وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ {١٥}﴾ ﴿القيامة: ١٤ - ١٥﴾.

(١) انظر: الكلام على مسألة السماع، ص (٣٤٢).

- (٢) تلبیس إبلیس، ص (٢٤٩).
- (٣) مدارج السالکین (٣٣٠/٢).
- (٤) مجموع الفتاوی (٢/٤٢).
- (٥) اقتضاء الصراط المستقیم (١/٤٨٤).
- (٦) التغبیر: هو الضرب بالقضیب، وهو آلة من الآلات التي تفرن بتلحین الغناء، انظر: الاستقامة (١/٣٨).
- (٧) أخرجه ابن جوزي في تلبیس إبلیس، ص (٢٥٧). (٨) مجموع الفتاوی (١٠/٥٣٢)، وانظر: الاستقامة (١/٣٣٨).
- (٩) مجموع الفتاوی (١٠/٤٢). (١٠) تلبیس إبلیس، ص (٣٧٦).
- (١١) مدارج السالکین: (١/٤٩٦، ٤٩٧، ٥٠٠)، وانظر: مجموعة الرسائل الكبرى لابن تیمیة (٢/٣٠٨).